

على هامش النقر :

هذه الشجرة... للعقاد

للأستاذ سيد قطب

هذا كتاب يجيء في إبانة لتصحيح مقاييس كثيرة في عالم التفكير والتصور ، وفي عالم الأخلاق والاجتماع ، تجاه مسألة من أكبر مسائل الحياة ، بل تجاه مسألة الحياة : مسألة الجنين ، وعلى أى أساس تقوم بينهما العلاقات .

هو كتاب يجيء في إبانه لأنه يرتفع بهذه المسألة فوق
الفسطاط الذهبية ، وفوق تقاليد « الصالونات » وفوق الفتنة
التافهة أو المغرقة بالمرأة « المترجلة » التي كادت تصبح زياً من
أزياء « المودة » يفتن بعض الرجال « المتأثنين » فتنة الأزياء الجديدة
للمرأة في كل زمان !

يرتفع بها فوق هذا كله ليردها إلى منطق الحياة ، وإرادة الطبيعة . ثم إلى وظائف المجتمع وقوانين الأخلاق ، المستمدة من منطق الحياة ومن إرادة الطبيعة . وقد آن لنا أن نرد كثيراً من الأوضاع إلى هذا المنطق الأسيل ، إذا شئنا أن نرجع إلى سواء الفطرة الخالدة ، التي قد تفقد في بعض الأجيال للملابسات خاصة ؛ ولكنها تعود إلى الصلاح حتماً ، لأن الحياة لا تستقيم طويلاً في عزلة عن هذه الفطرة الأميلة .

والمسألة حين ترتفع إلى هذا المستوى ، لا يعود الحديث فيها هو الحديث عن حقوق المرأة وحقوق الرجل ؛ ولكن عن حقوق الحياة من وراء المرأة ووراء الرجل ، ولا يعود الرجوع فيها إلى إرادة هذا الجنس أو ذاك ؛ ولكن إلى إرادة الطبيعة التي صاغت الجنين ، لتصل بهما جميعاً إلى تحقيق أغراضها وأغراض الحياة . ومن هنا نصل إلى المنطق الفاصل ، الذي يعود كل منطق سواء عبثاً وسفمطة ، وتطرفاً يصلح « المصالوات » والمحتمات ؛ ولا يصلح لبناء الحياة وإقامة المجتمعات !

✱ ✱ ✱

والعقاد هنا في ميدانه الأصل : ميدان التحليل والتحليل ،
للبواعث النفسية والكوامن الفطرية ، والسمات الشخصية . وهو
الميدان الذي يقف فيه متفرداً في الشرق العربي الحديث .

ويجب أن نقف هنا وقفة قصيرة لتوضيح ما يعنيه التحليل والتعليل . فليس أكذب على القارئ من شبهة شائعة عنه عند من لا يفرقون بين ألوان المنطق الإنساني في الحياة والفنون .

تقوم هذه الشبهة على أساس أن المنطق الفكري هو الذي يغلب على كتابات العقاد ... وهذا في الواقع هو مفرق الطريق . في اعتقادي - بين من يفهمون ومن لا يفهمون . بل بين من يشعرون ومن لا يشعرون ، حين يتذوقون الفنون !

إن للمتباد منطقاً قوياً جارفاً ... هذا صحيح ... ولكن أى منطق ؟ إنه « المنطق الحيوى » كما عبرت عنه فى مقالة سابقة فى الرسالة منذ أكثر من عام . وذلك حيث أقول :

« مدرسة العقاد هي مدرسة المنطق الحيوى . والنسبة هنا إلى « الحياة » وإلى « الحيوية » جميعاً ... إلى « الحياة » لأن مرد الحكم على كل قول وكل عمل هو ما تقولاه الحياة وما تصنعه ، ومنطقها هو المنطق المطاع فى جميع الأحوال .

كل ما تصنع الحياة يرجى من بينها قبوله واعتباره
 فإذا أنكروا قبيحاً في القبح من الموت لونه أو شامره
 « وإلى « الحيوية » لأن مرد الحكم على كل قول وكل عمل
 هو باعته ، ومدى الحيوية في هذا الباعث . وقد تشابه مظاهر
 الأعمال والأقوال ، ولكنها تتفق في « الرصيد » المكنون لها
 من الباعث الحيوى ، فيتوحد الحكم عليها . وقد تتفق مظاهرها ،
 ولكنها تختلف في الرصيد ، فيكون ذلك مناط الاختلاف » .

إلى أن جاء في ذلك المقال نفسه:

« ولقد كان العقاد - بما فيه من يقظة الحس وقوة الحواس - وشيكا أن يبذل إعجابه كله للحياة المحسوسة الظاهرة ، وللحيوية التدفقة في الحس والفرية ، لولا قسط من « الصوفية » - ولا يجب أحد لهذا الكلمة - ففي العقاد إيمان عميق بقوة مجهولة تصرف الحياة والناس ، وتسيطر على أقدار الفرد والنوع (والصوفية في أساسها البسيط هي هذا الإيمان بالمجهول) . ولكن هذه القوة المجهولة التي يؤمن بها العقاد إنما تصرف الحياة والناس ، وتسيطر

« فالإغواء كافٍ للأنثى ، ولا حاجة بها إلى الإرادة القابضة . بل من البعث تزويدها بالإرادة التي تطلبها الذكر عنوة ؛ لأنها متى حلت كانت هذه الإرادة مُضَيِّعة طوال مدة الحمل بغير جدوى . على حين أن الذكور قادرون إذا أدوا مطلب النوع مرة ، أن يؤدوه مرات بلا عائق من التركيب والتكوين ، وليس هذا في حالة الأنثى بميسور على وجه من الوجوه .

« وإكراه الأنثى على تلبية إرادة الذكر لا يضير النوع ولا يؤدي النسل الذي ينشأ من ذكر قادر على الإكراه وأنثى مزودة بفتنة الإغواء ؛ فهنا تم للزوجين أحسن الصفات الصالحة للإنجاز النسل : من قوة الأبوة ، وجمال الأمومة ، ويتم للنوع مقصد الطبيعة من غلبة الأقوياء الأسماء القادرين على ضمان نسلهم في ميدان التنافس والبقاء ...

« وعلى تقيض ذلك لو أعطيت الأنثى القدرة على الإرادة والإكراه لكان من جراء ذلك أن يضمحل النوع ويضار النسل ؛ لأنه قد ينشأ في هذه الحالة من أضنف الذكور الذين ينهمون للأناث ... !

« وكيفما نظرنا إلى مصلحة النوع وجدنا من الخير له أبداً أن يتكفل الذكور بالإرادة والقوة ، وأن تتكفل الإناث بالإغواء والتلبية ، بل وجدنا أن فوارق البنية قد جعلت السرور في كل من الجنسين قائماً على هذا الأساس العميق في الطبع . فلاسرور للرجل في إكراهه على مطلب النوع ، بل هو مننص له ، مضنف من لذة حسه . أما المرأة فقد يكون استسلامها لقلبة الرجل عليها باعثاً من أكبر بواعث سرورها ، ولعله أن يكون مطلوباً لذاته كأنه غرض مقصود . بل هو في الواقع غرض مقصود لما فيه من الدلالة على توفيق الأنثى إلى إغواء أقوى الذكور . ومن البدايات الفطرية أن تظاهر المرأة بالألم والانكسار في استجابتها للنوع ، لأنها تظن ببدايتها الأثوية إلى هذا الفارق الأصيل في خصائص الجنسين »

يمثل هذا المنطق المستلهم مباشرة من الحياة سير العقاد في « هذه الشجرة » ، فيتحدث عن : « عناية المرأة ، وجمال المرأة ، وتفاوت الجنسين ، وتناقض المرأة ، وحب المرأة ، وأخلاق المرأة ،

على أقدار الفرد والنوع لمصلحة هذه الحياة نفسها ، وللرق بالإنسانية في منارج الكمال ، لا تفرض آخر من الأغراض الناشئة المجهولة . وهذا القسط من الصوفية - بهذا المعنى - يتخرج بالحيوية الحسية ، فيخرج منهما مزاج جديد ، فيه من هذه وفيه من تلك ، على غير تحيز بينهما ولا انفصال .

« ولقد كان العقاد كذلك - بما فيه من صحو الذهن وبقطة الوعي - وشيكا أن يبذل قواه كلها للفكر والمنطق ، لولا فيض من حيوية الطبع ، يحرف قوى الذهن والوعي ، فتستحيل جنوداً لهذا الطبع الحى ، تضرب بسلاحه ، وتستمد منه القوة ، وله عليها السيطرة في النهاية ! »

في هذا الذي اقتبسناه إيضاح لطبيعة المنطق عند العقاد ، ولأسس التحليل والتليل التي نعتيها . وفيه كذلك تفسير لكل آراء العقاد في الكون والحياة ، وفي الأدب والفن ، على السواء . وما لهذا أو ذلك وحده سقنا هذا الاقتباس . ولكن لأنه يصلح كذلك أساساً للحديث عن « هذه الشجرة » !

إنه يتحدث عن أسلحة المرأة وأسلحة الرجل في الحياة ، فيردها إلى أهداف الحياة وإلى مصلحة النوع ، وإلى إرادة الطبيعة . فسلح المرأة هو الإغواء ، وسلح الرجل هو الإرادة . وتلليل ذلك فيما يلي :

« وليس للمرأة أن تريد غير هذا النوع من الإرادة ، لأسباب عميقة في أصول التركيب والتكوين .

« وموقت الجنسين من الاستجابة لمطالب النوع يهدينا إلى حكمة هذا الفارق من طريق قريب .

فالذكور من جميع الحيوانات قد أعطيت القدرة - بتركيبها الجسدى - على إكراه الإناث لاستجابة مطالب النوع طائعات أو مقسورات . ولا يتأتى ذلك للأنثى على حال من الحالات الجسدية ، ففانية ما عندهن من وسيلة أن يهجن الرغبة في الذكور وأن يجعلهم يريدون ، ولا يستطيعون الإمتناع عن الإرادة .

« فهذا الفارق ملحوظ في أعمق أعماق التركيب الجسدى من كلا الجنسين ، منذ نشأ الفارق بين ذكر وأنثى في عالم الحيوان . وحكمته ظاهرة كل الظهور ، لأنها هي الحكمة التي توافق بقاء النوع ، وارتقاء الأفراد جيلاً بعد جيل .

كذلك على الإغواء هو الذى تكفل به بعض فصول الكتاب !
والعقاد ميبأ بطبيعته ، لأن تتكشف له « الأنثى الخالدة »
من وراء الرأة المتجملة ، والأوضاع الطارئة . وهو القائل فى كتابه
« شاعر الغزل » عن طبيعة عمر بن أبى ربيعة :

« إنما تأنى خبرة ظرفاء المجالس من تقارب الإحساس بين
الرأة وبين هذه الطائفة من اللاهين والتنزلين . فهم يحسون كما
تحس ، أو على نحو قريب مما تحس ، وهم يشبهونها بعض الشبه
فيصدقون فى الحكاية عنها ، والتحدث بخوارق نفسها . وفرق
بيد بين هذا وبين الرجل الذى يعلم طبع الرأة وهو يخالفها فى
طبعها ، ويستجيش ضمائرهما ، لأن هذه الضمائر تجاوبه مجاوبة
الأنثى للذكر ، فيعرف من مجاوبتها كيف تضطرب نفسها ،
وتتقلب هواجها وخواطرها »

الرجل الأول هو عمر بن ربيعة ، والرجل الثانى هو العقاد .
وإن هذه الاستجاشة وتلك الخبرة الناشئة عنها لواختان كل
الوضوح فى هذا الكتاب !

سير قطب

وحقوق الرأة ، والجنس ، والحب ، ومعاملة الرأة » وهى الفصول
التي تضمنها كتابه ، ثم يجتمها « بمقتطفات عن الرأة من كتب
المؤلف » تتساق مع آرائه التي أبداهها فى الكتاب ، وتدل على عمق
هذه الآراء فى نفسه ، وأصالتها فى طبيعته ، وأنها ليست وليدة
الاطلاع وحده ، ولا وليدة التجربة وحدها ، ولكنها قبل هذا
وذلك وليدة الطبع المستقيم ، والفطرة السليمة ، التي تستمد
عناصر شعورها وتشكيورها من صميم الحياة والطبيعة .

ولولا أننا معجلون — لضيق الفراغ — لاقتبست هنا
كثيراً من الفقرات الدالة على هذا كله فى ذلك الكتاب ، الذى
أعده من أعظم ما كتب العقاد

ولكن هنا ملاحظة جديرة بالتسجيل . ذلك أن العقاد فى
كتابه هذا إنما يتحدث عن « الأنثى الخالدة » وراء أوضاع
المجتمع ، ووراء أزياء الحضارة ، الأنثى التي طعمت من الشجرة
المحرمة — لأنها ممنوعة — وأغوت رجلها فأكل ، والتي لن
تزال تطعم من كل شجرة محرمة — لأنها ممنوعة — وتنفوى
رجلها فيما كل ! وتأويل هذه الفتنة بالمنوع ، وتأويل قدرتها

بين حربيين

تأليف

محمد عبد الفتاح ابراهيم

ساح أركان الحرب

دراسة مفصلة لتاريخ العالم بين الحرب الماضية والحرب
الحالية كي يمكن تجنب الأخطاء والميل لإيجاد سلم دائم
فى عالم ما بعد الحرب .

عدا أجرة البريد

التمن ١٥ قرشا

شركة مكتبة ومطبعة البابي الحلبي وأولادهم

شارع الشيخ محمد عبده رقم ١٢ بجوار الأزهر

تليفون ٥١٣٢٢ — ص . ب النورية رقم ٧١

أكبر المائت العربية وأشررها

بها أعظم استعداد لنشر المؤلفات

الحربية والكتب القيمة